ظفر المكيافيلية

وإلام يدفع العالم هذا الظفر؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

لما وضع المؤرخ والفيلسوف السياسي نيكولو ماكيافلي ، كتابه « الأمير » في سنة ١٥١٣ متضمناً لمذهبه المشهور في الحكم والسياسة ، لم يكن يتوقع أن يغدو كتابه بعد أربعة قرون إنجيلاً لنوع جديد من الحكم يحاول اليوم أن يفرض مبادئه على العالم ، ولم يكن يتوقع بالأخص أن تغدو آراؤه السياسية نبراساً لإيطاليا الجديدة يدفعها إلى طريق السلطان والقوة ، أو يتصور أن هذه الآراء قد تغدو يوماً مثار حرب عالمية طاحنة بين المبادئ السياسية والاجتماعية الخصيمة . ذلك أن مكيافيلي كتب كتابه في عصر كانت إيطاليا تنقسم فيه إلى عدة جمهوريات وإمارات صغيرة ، يتنافس ويقاتل بعضها بعضا ، وتتقلب إماراتها ورياساتها بين عصبة من الزعماء والمتغلبين ؛ واستوحى معظم آرائه من دراسته لأحوال هذه الدويلات الصغيرة ، وهذا الزهط من الأمراء المتنازعين ، واتخذ أميره الأمثل من رجال من طراز هذا العصر شقوا طريقهم إلى السلطان والملك بوسائل مثيرة من العنف والخيانة والغدر ؛ وكان أقصى أمانيه حينما وضع « الأمير » ، وأهداه إلى أميره وحاميه لورنزو دى مديتشي أمير فلورنس ، أن يكون كتابه مرشداً لأمراء عصره في تفهم أساليب الحكم التي تلائم روح العصر ، وتلائم مطامع الزعامات المحلية التي كانت تضطرم يومئذ في دائرة محدودة ، قوامها عدة من الولايات والمدن الإيطالية .

كانت المكيافيلية إذن شعار عصر خاص ومجتمع خاص ؛ وكان طابعها القاتم ، وما انطوت عليه من المبادئ العنيفة التي لا ضمير لها ولا وازع ، والتي تناضت عن كل المثل الإنسانية والأخلاقية ، يسبغ عليها دائماً في نظر المجتمعات الرفيعة لوناً من الشذوذ البغيض الذى تأباه السياسة المستنيرة . ومن ثم كانت الفلسفة المكيافيلية على كر العصور مضرب الأمثال للسياسة البغيضة .

وليس من موضوعنا أن نتبسط في شرح المكيافيلية وأصولها ، ولكنا نورد من أقوال واضعها هاتين الفقرتين اللتين تتضمنان لب النظرية المكيافيلية في الحكم والسياسة :

١ — « لا يستطيع الأمير العاقل وليس عليه أن يحفظ العهد ؛ إذا كان مثل هذا الوفاء قد ينقلب ضده ، وإذا زالت الأسباب التي حملته على قطعه

٢ — « ليس من الضروري أن يتصف الأمير بالخلال الحسنة التي ذكرتها ، ولكن من الضروري أن يبدو كأنه متصف بها .. ولا يستطيع الأمير ، ولا سيما الأمير الجديد، أن يراعى كل الأمور التي يقدر الناس من أجلها لأنه كثيراً ما يرغم لكي يحفظ الدولة على أن يتصرف بغير ما يقضي به الإخلاص والصداقة والإنسانية والدين ، وإذاً فمن الضروري أن يكون ذهنه متأهباً للعمل وفقاً لتقلب الريح والجدود »

هذا هو لب النظرية المكيافيلية في الحكم . ويكفي أن نقرأ كلمة « الدولة » مكان كلمة « الأمير » لنسبغ على هذه النظرية طابعها الحديث ؛ وفي التاريخ كثير من الأمراء والطغاة الذين حكموا قبل مكيافيلي بنفس الروح والوسائل التي نادى بها مكيافيلي ، وفيه كثير من الأمراء والساسة المحدثين الذين

المصريين أحداً سواى »

— حدثني عن ليلى المريضة في لبنان

— كانت ليلى المريضة في لبنان زميلتي في الدرس يوم كنا طالبين في الجامعة المصرية ؛ وكنت أتقرب إلى قلبها باغتياب الأساتذة ، فأزعم أن الكونت دى جلارزا لا يفهم الفلسفة ، وأن الشيخ الهدى لا يعرف أسرار الأدب ، وأن الشيخ الخضرى لا يدرك حقائق التاريخ ، وأن اسماعيل بك رأفت يجهل الجغرافيا ووصف الشعوب !

— يظهر أنها طالبة شقية !

— كانت أشقى من ليلى المريضة في دمياط

— أنا لا يهمني إلا الوقوف على أسرار ليلى المريضة في لبنان

— إنتظرى ، إنتظرى ، إن الله مع الصابرين

« للحديث بقية وبقية »

زكى مبارك

أعجبوا بمبادئ مكيافيلي وطبقوها فى عصور تعتبر فيها هذه المبادئ من ألوان الغدر السياسي والاجتماعى الذى يصم الدولة المتمدنة ؛ وما زالت المكيافيلية إلى يومنا محكوماً عليها ، وما زالت تعبر دائماً منافية لجميع المبادئ الحرة والإنسانية التى تقوم عليها المدنية الحديثة

على أن هذه الحقيقة التاريخية القديمة تختفى اليوم شيئاً فشيئا ؛ فلم تعد المكيافيلية فى عصرنا فلسفة سياسية منبوذة ، ولكنها تغدو بالعكس حقيقة واقعة تطبقها وتؤمن بها دول عظيمة . ذلك أن الفاشستية الإيطالية والأنظمة الطاغية المماثلة الأخرى تقوم فى جوهرها على الفلسفة المكيافيلية ؛ وقد أسبغت وسائلها وأساليبها على نظريات فلياقيلى شرعية جديدة ، وغدت هذه النظريات اليوم أساسا لنوع جديد من الحكم والسياسة تقوم عليه عدة دول قوية جديدة ؛ فنى إيطاليا وألمانيا وروسيا تجد نظريات مكيافلى اليوم ميدانا شاسعاً لتطبيقها

* * *

وقد تناول هذا الموضوع الخطير أخيراً كاتب ومؤرخ فرنسى كبير هو مسيو لوى دى فيلفوس L. de Villefosse ، فى كتاب قيم عنوانه « نحن ومكيافيلى Machiavel et Nous » درس فيه حياة الفيلسوف دراسة وافية ، وانتقل منها إلى عصر التطبيق ، فذكر أن الفاشستية هي أعظم تجربة مكيافيلية عرفها التاريخ ، وأن فكرة السنيور موسوليني فى توحيد الشعب هى فكرة مكيافيلية محضة . « أن تكون الدولة (وفى لغة مكيافيلى الأمير) كل شيء والفرد لاشيء ، وأن تكون الدولة مصدر كل السلطات والقوانين ، وأن تطرح كل اعتبار أخلاق فى تحرى غاياتها » هذا هوشعار الفاشستية ، كما يعرفها الأستاذ دى فيلفوس ، وهذا هو شعار الدول الطاغية الأخري التى تقوم على أصولها ؛ وهذه هى نفس الرسالة التى بشر بها الفيلسوف الإيطالى فى كتابه « الأمير »

وكما أن الفاشستية تقوم من الوجهة العلمية على أسس المكيافيلية فهي أيضاً تؤثر لغتها وأساليبها الدبلوماسية ؛ فزعيم الدولة الايطالية يستعمل اليوم نفس الوضوح الجاف ، والصراحة المثيرة ، فى تمجيد وسائل العنف وأساليب القوة الهمجية ، ويبدى نفس الاغتباط في تمزيق جميع المثل العاطفية ، وينقدم إلى العالم باسم الدولة وضرورة قيامها على أنقاض جميع العناصر والاعتبارات الانسانية ، وبأنها مصدر الحق ومجمع القوى ؛ ثم هو يرجع مثله الأعلى إلى نفس الكعبة المقدسة التى مجدها مكيافيلى ، وهى « رومة » وعظمتها الخالدة

فالفاشستية هى إذن ذروة النجاح العملى فى تطبيق الفلسفة المكيافيلية ؛ وإذا كانت المكيافيلية قد استطاعت من عصر إلى آخر ، وفى بعض الظروف والمناسبات أن تحقق لمحات من الظفر ، فإنها اليوم على يد الفاشستية تحقق ظفرها كاملا . وخلاصة شعارها الظافر الذى نادت به منذ أربعة قرون هو شعار الدول الفاشستية المعاصرة ، وهو أن النصر الحقيق إنما هو للقوى المسلحة والوسائل المدمرة ، وإن كل سياسة لا تقوم على الحقائق العملية مصيرها إلى الفشل المحقق ، وإنه لاحق للضعيف والأعزل فى البقاء ، ولا وجود لمثل أو مبادئ مثلى لا تدعمها القوة المادية

بل ويرى الأستاذ ڤيلفوس أن ظفر المكيافيلية لم يقف عند هذا الحد ؛ ذلك أن هذا الظفر يشمل ميادين لم تكن تصلح بطبيعتها ولا بمبادئها لاعتناق المكيافيلية وتطبيقها وهى الدول الديموقراطية ؛ ولكن الدول الديموقراطية ترى نفسها اليوم مضطرة إلى أن تتحوط لخطر الدول الفاشستية المدججة بالسلاح ، وأن تقابل القوة بالقوة محافظة على سلامتها وكيانها ، فهى بذلك مضطرة إلى أن تقتبس نوعاً من المكيافيلية التي لا ترغبها ولا تؤمن بها ، وهذه هى حقيقة محزنة ، ولكنها حقيقة لا ريب فيها

* * *

هذه هى خلاصة الحقائق التاريخية الجديدة التى يبسطها الكاتب الفرنسى فى مؤلفه بسطاً قوياً شائقاً ؛ ونقول إنها حقائق تاريخية لا تعوزها الأدلة الواقعية . وما ذا تكون المكيافيلية إذا لم تكن هى نفس النظم التى تطبق اليوم بمنتهى العنف والصرامة فى إيطاليا الفاشستية ، وألمانيا النازية ، وروسيا البلشفية ؟ إن هذه النظم جميعاً تقوم على نوع من الزعامة الممعنة فى الطغيان والاستئثار بكل السلطات ، وهذه الزعامة ذاتها تستتر وراء فكرة الدولة ؛ ولم يبق للفرد اليوم وجود فى ظل هذه النظم المطلقة ، ولم

يبق له شيء من الحقوق أو الحريات العامة ، فهـذه كلها تفيض وتنمحى فى شخص الدولة ؛ والدولة أو أولئك الذين يعملون باسمها يضعون أيديهم على مصاير الأمة أرواحها وعقولها وجسومها وكل ما ملكته أيديهم ، ويتخذون من التشريع الدعم بالقوة القاهرة سلاحاً لفرض كل تجاربهم الإصلاحية على الشعب ، ويزعمون أن مناهجهم الإصلاحية هي السبيل القويم لتحقيق عظمة الأمة وخير الشعب ؛ وقد يعتمدون فى هذا السلطان فضلاً عن قوة الجيش العامة على صفوف حزبية كثيفة من الشباب المسلح المدرب على أساليب العنف ؛ وتسيطر هـذه التجارب والمحاولات الإصلاحية على حياة الفرد الخاصة فضلاً عن الحياة العامة ، فترسم له خطط أعماله وتفكيره واعتقاده واتجاهاته وتصرفاته كلها دون أن تكون له إرادة الاختيار أو المعارضة ، وتجرى هذه المحاولات جميعاً باسم الدولة التى تقبض عليها الزعامة المتربعة فى دست الحكم

وهذه الزعامة المطلقة العاملة باسم الدولة هى بعينها « أمير » مكيافيلى ، واستتارها وراء فكرة الدولة إنما هو نوع من النفاق السياسى الذى أوصى به مكيافيلى

وكما أن المكيافيلية تبدو واضحة فى خطط السياسة الداخلية لهذه الدول المطلقة ، فهى تبدو واضحة أيضاً فى السياسة الدولية الخطرة التى تجرى عليها هذه الدول في تنظيم علائقها مع الدول الأخرى ؛ فالقوة في نظرها هى أساس الحق والعهود ، والمواثيق الدولية لاقيمة لها فى نظرها مادامت لاتتفق مع مصالحها ومراميها . وهذه هى الصورة الحديثة لمبدأ مكيافيلى فى قوله : « إن الأمير كثيراً ما يرغم لحفظ الدولة على أن يتصرف بغير ما يقضى به الإخلاص والصداقة والانسانية والدين » ولقـد رأينا إحدى الدول العظمى تلغى ما بقى من تعهداتها فى معاهدة الصلح ، وتنكر ما وقعته من مواثيق دولية لصون السلام بحجة أن هذه النصوص والعهود تصطدم مع مصالحها الوطنية ولم يبق اليوم مبرر لبقائها بعد أن تغيرت الظروف التى أبرمت فيها ، ولم تفعل ذلك إلا بعد أن آنست من نفسها قوة تدعم بهـا خطوتها . بيد أن الروح المكيافيلية تبدو بنوع خاص فى اعتداءات بعض الدول القوية على الدول الضعيفة وغزوها أو استعمارها ، وقد كان غزو الفاشستية للحبشة والاستيلاء عليها بلا ريب أسطع المغامرات المكيافيلية فى عصرنا ، فقـد انتهكت فيه جميع العاهدات التى عقدت والمواثيق التى قطعت باحترام سلامة الحبشة واستقلالها ، ولم تخف الفاشستية أنها أقدمت على هذه الخطوة الجريئة تحقيقاً لمطامعها الامبراطورية

وها نحن أولاء اليوم نشهد نفس التجربة الخائنة فى أسبانيا وفى الصين

فإلى أى مصير يسير العالم فى ظل هذه المبادئ العنيفة الخطرة ؟ يقول لنا مؤلف كتاب « نحن ومكيافيلى » إن مدى الشر الانسانى لم ينقص وإن العناصر السيئة في الأفراد تجمع من جديد لتطلق بعد ذلك من عقالها فى أعمال العنف والشر ، وأنها قد تدفع العالم إلى كارثة أفظع وأروع من كارثة الحرب الكبرى

ونخشى أن يكون فى ظواهر العصر وتطورات السياسة كثير مما يدعم هذا التكهن المروع

محمد عبد الله عنان

فى أصول الأدب

للأستاذ احمد حسن الزيات

كتاب جديد فريد فى نوعه . يشتمل على أبحاث تحليلية طريفة فى الأدب العربى وتاريخه . منها تاريخ الأدب وحظ العرب منه . العوامل المؤثرة فى الأدب . أثر الحضارة العربية فى العلم والعالم تاريخ حياة ألف ليلة وليلة وهو أوفى بحث كتب فى هذا الموضوع إلى اليوم . ثم قواعد تفصيلية للرواية التمثيلية الخ الخ ...

يطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنه ١٢ قرشا